صالحاً مكثراً[1] . مات في ذي القَعدة سنةَ إحدى عشرة وخمس مئة .

وقيل : مات في صفر سنةَ اثنتي عشرة ، والأول أصحُّ .

وفيها مات خطيبُ قُرطبة أبو القاسم خلفُ بن إبراهيم بن النخاس ، وأبو طاهر اليوسفي[2] راوي سنن الدارقطني ، والمُحدِّثُ عبدُ الرحمن بن أحمد بن صابر الدمشقي[3] ، وأبوجعفر محمد بن الحسن بن باكير الكاتب ، والمُعَمَّرُ أبو علي بن نبهان الكاتب ، والسلطانُ محمد بن ملكشاه[4] ، والحافظ أبو زكريا يحيى بن أبي عمْرو بن مَنده .

٢٠٤ ـ الغَزَّالي *

الشيخُ الإمامُ البحر ، حجةُ الإسلام ، أعجوبةُ الزَّمان ، زَيْن الدين أبو

(١) في « التحبير » : ١٠/٢ : شيخ صالح ، سديد ، ثقة ، صدوق ، مكثر من الحديث ، عمر طويلاً حتى حدث بالكثير ، وانتشرت رواياته .

(٢) تقدمت ترجمته برقم (١٨٨) .

(٣) سترد ترجمته برقم (٢٤٦) .

(٤) سترد ترجمته برقم (٢٩٣) .

(*) تبيين كذب المفتري : ٢٩١ ـ ٣٠٦ ، المنتظم : ١٦٨/٩ ـ ١٧٠ ، منتخب السياق/الورقة : ٢٠ ، اللباب : ٣٧٩/٢ ، الكامل لابن الأثير ٤٩١/١٠ طبقات ابن الصلاح : ٢/٢١ ـ ٢/٢٣ ، وفيات الأعيان : ٢١٦/٤ ـ ٢١٩ ، المختصر في أخبار البشر : ٢٣٧/٢ ، تاريخ الإسلام : ٢/١٧٣/٤ ـ ٢/١٧٦ ، دول الإسلام : ٣٤/٢ ، العبر : ١٠/٤ ، تتمة المختصر : ٣٥/٢ ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ٣٧ ـ ٣٨ ، الوافي بالوفيات : ٢٧٤/١ ـ ٢٧٧ ، عيون التواريخ : ١٣/لوحة : ٢٦٢ ـ ٢٦٧ ، مرآة الجنان : ١٧٧/٣ ـ ١٩٢ ، مرآة الزمان : ٢٥/٨ ـ ٢٦ ، طبقات الشافعية للسبكي : ١٩١/٦ ـ ٢٨٩ ، طبقات الإسنوي : ٢٤٢/٢ ـ ٢٤٥ ، البداية : ١٧٣/١٢ ـ ١٧٤ ، وفيات ابن قنفذ : ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ، النجوم الزاهرة : ٢٠٣/٥ ، الأنس الجليل : ٢٦٥/١ ، مفتاح السعادة : ٣٣٢/٢ ـ ٣٣٦ ، ٣٤١ ـ ٣٤٣ ، ٣٤٧ ـ ٣٥٠ ، ٥٦٠ ـ ٥٦٢ ، أسماء الرجال لابن هداية الله : ٦٤ ، طبقات ابن هداية الله : (خ) ٦٩ ـ ٧١ ، كشف الظنون : ١٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦ ، شذرات الذهب : ١٠/٤ ـ ١٣ ، إتحاف السادة المتقين : ٦/١ ـ ٥٣ ، روضات الجنات : ١٨٠ ـ =

حامد محمدُ بنُ محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسي ، الشافعي ، الغزَّالي ، صاحبُ التصانيف ، والذَّكاءِ المُفرِط .

تفقَّه ببلده أولاً ، ثم تَحوَّل إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة ، فلازمَ إمامَ الحرمين ، فبَرع في الفقه في مدة قريبة ، ومَهَر في الكلام والجدل ، حتى صارَ عينَ المناظرين ، وأعادَ لِلطلبة ، وشَرَعَ في التصنيف ، فما أعجب ذلك شيخَه أبا المعالي ، ولكنه مُظْهِرٌ للتبجُّح به ، ثم سار أبو حامد إلى المُخيَّم السُّلطاني ، فأقبل عليه نظامُ المُلك الوزير ، وسُرَّ بوجوده ، وناظرَ الكِبارَ بحضرته ، فانبهر له ، وشاع أمْرُهُ ، فولَّاه النظام تدريس نِظامية بغداد ، فقدمها بعدَ الثمانين وأربع مئة ، وسنّه نحو الثلاثين ، وأخذ في تأليف الأُصولِ والفقه والكلامِ والحِكمة ، وأدخله سَيلانُ ذهنه في مضايق الكلامِ ، ومَزالِّ الأقدام ، ولله سِرٌّ في خلقه[1] .

وعَظُم جاهُ الرجل ، وازدادت حِشمتُه بحيث إنه في دسْت أمير ، وفي رُتبةِ رئيسٍ كبير ، فأدَّاه نظرُه في العُلوم وممارستُه لأفانين الزهديات إلى رفض الرئاسة ، والإنابة إلى دارِ الخلود ، والتألُّه ، والإخلاصِ ، وإصلاحِ النفس ، فحجَّ من وقته ، وزار بيت المقدس ، وصحب الفقيهَ نصرَ بنَ إبراهيم[2] بدمشق ، وأقام مدةً ، وألَّف كتاب « الإحياء » ، وكتابَ

= ١٨٥ ، إيضاح المكنون : ١١/٢ ـ ١٧١ ، هدية العارفين : ٧٩/٢ ـ ٨١ ، بروكلمان : ١٤٠٨ ـ ١٤١٦ ، معجم المؤلفين : ٢٦٦/١١ ـ ٢٦٩ ، المجددون في الإسلام : ١٨١ ـ ١٨٤ .

(١) يراجع كتاب « الحقيقة عند الغزالي » تأليف الدكتور سليمان دنيا ، ففيه دراسة جادة للغزالي حري بكل طالب علم أن يقف عليها .

(٢) المقدسي ، قال السبكي : ١٩٧/٦ : وكان الغزالي يكثر الجلوس في زاويته بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه ، وكانت تعرف قبله بالشيخ نصر المقدسي .

« الأربعين » ، وكتاب « القِسطاس »، وكتاب « مَحكّ النظر » . وراض نفسَه وجاهدها ، وطرد شيطانَ الرُّعونة ، ولبس زِيَّ الأتقياء ، ثم بعدَ سنواتٍ سار إلى وطنه ، لازماً لِسَنَنه ، حافظاً لوقته ، مكباً على العلم .

ولما وَزَرَ فخرُ المُلك ، حضر أبا حامد ، والتمس منه أن لا يُبقيَ أنفاسَه عقيمة ، وألحَّ على الشيخ ، إلى أن لان إلى القدوم إلى نَيسابور ، فدرَّس بنظاميتها .

فذكر هذا وأضعافَه عبد الغافر في «السِّياق»، إلى أن قال : ولقد زرتُه مراراً ، وما كنت أَحْدُسُ في نفسي مع ما عَهِدْتُه عليه من الزَّعارَة[1] والنظر إلى الناس بعينِ الاستخفاف كِبراً وخُيلاءً ، واعتزازاً بما رُزِقَ من البسطة ، والنُّطق ، والذِّهن ، وطلب العلو ؛ أنه صار على الضِّدِّ ، وَتَصفَّى عن تلك الكُدورات ، وكنتُ أظنُّه متلفعاً بجلباب التكلُّف ، مُتنمِّساً بما صار إليه ، فتحقَّقت بعد السَّبْرِ والتَّنقِيرِ أن الأمر على خلافِ المظنون ، وأن الرجل أفاق بَعْدَ الجنون ، وحكى لنا في ليالٍ كيفيةَ أحواله مِن ابتداء ما أَظْهرَ له طريق التألُّه ، وغلبة الحال عليه بعد تَبحُّرِه في العلوم ، واستطالتِه على الكل بكلامه ، والاستعدادِ الَّذي خصَّه الله به في تحصيل أنواعِ العُلوم ، وتمكنه مِن البحث والنظر ، حتى تبرَّم بالاشتغال بالعُلوم العَريَّة عن المعاملة ، وتفكَّر في العاقبة ، وما يبقى في الآخرة ، فابتدأ بصُحبة الشيخ أبي علي الفَارْمَذِي[2] ، فأخذ منه استفتاحَ الطريقة ، وامتثل ما كان يأمُرُه به من

(١) الزعارة بتشديد الراء مثل حمارّة الصيف ، وبتخفيف الراء عن اللحياني ، أي : شراسة وسوء خلق لا يتصرف منه فعل .

(٢) نسبة إلى فارمَذ : قرية من قرى طوس ، قال السمعاني في « الأنساب » : ٢١٨/٩ ، ٢١٩ : والمشهور بالنسبة إليها أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمذي لسان =

العبادات والنوافل والأذكار والاجتهاد طلباً للنجاة ، إلى أن جاز تلك العِقَابَ ، وتكلَّف تلك المشاق ، وما حَصَلَ على ما كان يرومُه .

ثم حكى أنه راجع العلومَ ، وخاض في الفنون الدَّقيقة ، والتقى بأربابها حتى تفتَّحت له أبوابُها ، وبقي مدةً في الوقائع وتكافؤ الأدلة ، وفُتِحَ عليه بابٌ من الخوف بحيث شغَله عن كُلِّ شيء ، وحمله على الإعراض عما سواه ، حتى سَهُلَ ذلك عليه ، إلى أن ارتاض ، وظهرت له الحقائقُ ، وصار ما كُنا نظنُّ به ناموساً وتخلقاً ، طبعاً وتحققاً ، وأن ذلك أثرُ السعادة المُقَدَّرة له .

ثم سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته ، والرجوعِ إلى ما دُعي إليه ، فقال معتذراً : ما كنت أُجوِّز في ديني أن أقِفَ عن الدعوة ، ومنفعة الطالبين ، وقد خفَّ[1] عليَّ أن أبوح بالحق ، وأنطِقَ به ، وأدعوَ إليه ، وكان صادقاً في ذلك ، فلما خفَّ أمرُ الوزير ، وعلم أن وقوفَه على ما كان فيه ظهورُ وحشةٍ وخيالُ طلبِ جاهٍ ، تَرَكَ ذلك قبل أن يُتْرَكَ ، وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسةً للطلبة ، وخانقاه للصوفية ، ووزَّع أوقاتَه على وظائف الحاضرين مِن ختم القرآن ، ومجالسةِ ذوي القلوب ، والقعود للتدريس ، حتى تُوفي بعد مقاساةٍ لأنواع من القصد ، والمناوأةِ من الخصوم ، والسعي فيه إلى الملوك ، وحفظ الله له عن نوشِ أيدي النكبات .

إلى أن قال : وكانت خاتمةُ أمره إقبالَه على طلب الحديث ، ومجالسة

= خراسان وشيخها ، وصاحب الطريقة الحسنة من تربية المريدين والأصحاب ، وكان مجلس وعظه على ما سمعت كروضة فيها أنواع الأزهار والثمار . . . . . توفي سنة ٤٧٧ هـ تقدمت ترجمته في الجزء الثامن عشر (٢٩٤) .

(١) في « طبقات السبكي » : ٢١٠/٦ : خُفَّ .

أهله ، ومطالعةِ « الصحيحين » [1] ، ولو عاش ، لسبق الكُلَّ في ذلك الفن بيسير من الأيام . قال : ولم يتفق له أن يَرْوِيَ ، ولم يُعْقِبْ إلا البناتِ ، وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ما يقومُ بكفايته ، وقد عُرِضَتْ عليه أموالٌ ، فما قَبِلَهَا .

قال : ومما كان يُعترض به عليه وقوعُ خَلَلٍ من جهة النحو في أثناءِ كلامه ، ورُوجِعَ فيه ،فأنصف، واعترف أنه ما مارسه ، واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يُؤلِّفُ الخُطب ، ويشرحُ الكُتُبَ بالعبارة التي يَعْجِزُ الأدباءُ والفصحاءُ عن أمثالها .

ومما نُقِمَ عليه ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتاب « كيمياء السعادة والعلوم » وشرح بعض الصور والمسائل بحيث لا تُوافِقُ مراسِمَ الشرع وظواهر ما عليه قواعدُ المِلَّة ، وكان الأولى به ـ والحقُّ أحقُّ ما يقال ـ تركَ ذلك التصنيف ، والإعراضَ عن الشرح له ، فإنَّ العوامَّ ربما لا يُحكِمُون أصولَ القواعد بالبراهين والحجج ، فإذا سمعوا شيئاً من ذلك ، تخيَّلُوا منه ما هو المُضِرُّ بعقائدهم ، ويَنْسِبُونَ ذلك إلى بيان مذهب الأوائل ، على أن المنصفَ اللبيب إذا رَجَعَ إلى نفسه ، عَلِمَ أن أكثر ما ذكره مما رَمَزَ إليه إشاراتُ الشرع ، وإن لم يَبُحْ به ، ويُوجَدُ أمثالُه في كلام مشايخ الطريقة مَرْمُوزةً ، ومُصرَّحاً بها متفرقة ، وليس لفظٌ منه إلا وكما تُشعر سائرُ وجوهه بما

(١) ذكر الحافظ ابن عساكر كما سينقله المؤلف عنه ٣٣٤ : أنه سمع صحيح البخاري من أبي سهل محمد بن عبيد الله الحفصي . وتقدم في ترجمة الرواسي ص ٣١٨ أنه قَدِمَ طوس في آخر عمره ، فصحح عليه الإمامُ الغزالي « الصحيحين » وفي الترجمة أيضاً ص ٣١٩ أنه لما قدم طوس ، أنزله أبو حامد الغزالي عنده ، وأكرمه ، وقرأ عليه الصحيح ثم شرحه .

يُوافق عقائدَ أهلِ المِلَّة[1] ، فلا يجب حملُه إذاً إلا على ما يُوافق ، ولا ينبغي التعلقُ به في الردِّ عليه إذا أمكن ، وكان الأولى به أن يَتْرُكَ الإفصاحَ بذلك ، وقد سمعتُ أنه سَمِعَ سننَ أبي داود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطُّوسي[2] ، وسمع من محمد بن أحمد الخُوَارِي والدِ عبد الجَبَّارِ كتابَ « المولد » لابن أبي عاصم بسماعه من أبي بكر بن الحارث عن أبي الشيخ عنه .

قلت : ما نَقَمَهُ عبدُ الغافر على أبي حامد في الكيمياء ، فله أمثالُه في غضون تواليفه ، حتى قال أبو بكر بن العربي : شيخُنا أبو حامد بَلَعَ الفلاسفةَ ، وأراد أن يَتَقَيَّأَهُمْ ، فما استطاعَ .

ومن معجم أبي علي الصدفي ، تأليفُ القاضي عياض له ، قال : والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة ، والتصانيفِ العظيمة ، غلا في طريقة التَّصوف ، وتجرَّد لنصر مذهبهم ، وصار داعيةً في ذلك ، وألَّف فيه تَواليفَه المشهورة ، أُخِذَ عليه فيها مَوَاضِعُ ، وساءت به ظنونُ أُمةٍ ، والله أعلمُ بِسِرِّه ، ونَفَذَ أمرُ السلطان عندنا بالمغرب وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعدِ عنها ، فامْتُثِلَ ذلك . مولدهُ سنةَ خمسين وأربع مئة .

قلت : ما زال العلماءُ يختلِفُون ، ويتكلم العالمُ في العالم باجتهاده ، وكُلٌّ منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماعَ، فهو مأزور، وإلى الله تُرْجَعُ الأمورُ .

(١) النص في « الطبقات » ٢١٣/٦ : وليس لفظ منه إلا وكما يشعُرُ أحدُ وجوهه بكلام مُوهِم ، فإنه يُشعر سائرُ وجوهه بما يُوافق عقائد أهل الملة .
(٢) في الطبقات زيادة : وما عثرت على سماعه .

ولأبي المظفر يوسف سِبْطِ ابنِ الجوزي في كتاب « رياض الأفهام » في مناقب أهلِ البيت قال : ذكر أبو حامد في كتابه « سِرِ العالمين وكشف ما في الدارين » فقال في حديث : « مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ ، فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ »[1] أن عمر قال لعلي : بخٍ بخٍ ، أصبحتَ مولى كُلِّ مؤمنٍ ومؤمنة . قال أبو حامد : وهذا تسليمٌ ورضىً ، ثم بعد هذا غلب عليه الهوى حباً للرياسة ، وعَقْدِ البنود ، وأمرِ الخلافةِ ونهيها ، فحملهم على الخلاف ، فنبذُوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشترون ، وسَرَدَ كثيراً من هذا الكلام الفَسْلِ الذي تزعمُهُ الإمامية ، وما أدري ما عُذْرُه في هذا ؟ والظاهر أنه رجع عنه ، وتبع الحقَّ ، فإنَّ الرجل من بحور العلم ، والله أعلم .

هذا إن لم يكن هذا وضع هذا وما ذاك ببعيد ، ففي هذا التأليف بلايا لا تنطبب، وقال في أوله: إنه قرأه عليه محمدُ بنُ تُومرت المغربي سِراً بالنظامية، قال : وتوسَّمْتُ فيه المُلْكَ .

قلت : قد أَلَّفَ الرجلُ في ذمِّ الفلاسفة كتاب « التهافت » ، وكَشَفَ عوارهم ، ووافقهم في مواضع ظنًّا منه أنَّ ذلك حقٌّ ، أو موافِقٌ للملة ، ولم يكن له عِلْم بالآثار ولا خِبرةٌ بالسنن النبوية القاضية على العقل ، وحُبِّب إليه إدمانُ النظر في كتاب « رسائل إخوان الصفا » وهو داءٌ عُضال ، وجَرَبٌ مُرْدٍ ، وسُمٌّ قَتَّالٌ ، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء ، وخيارِ المُخلِصين ، لَتَلِفَ . فالجِذَارَ الجِذَارَ من هذه الكتب، واهرُبُوا بدينكم من شُبَهِ الأَوَائِلِ ، وإلا

(١) حديث صحيح رواه عن النبي ﷺ زيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وبريدة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعلي ، وأبو أيوب ، وابن عباس . انظر « المسند » ١/ ٨٤ و ١١٨ و ١٥٢ و ٣٣٠ ، و ٤/ ٢٨١ و ٣٦٨ و ٣٧٢ و ٥/ ٣٤٧ و ٣٥٠ و ٣٥٨ و ٣٦١ و ٣٧٠ ، والترمذي (٣٧١٣) وابن ماجة (١١٦) و(١٢١) وابن حبان (٢٢٠٤) و (٢٢٠٥) والحاكم ٣/ ١٠٩ و ١١٠ و ١٣٢ - ١٣٤ .

وقعتُم في الحَيْرةِ، فمن رام النجاةَ والفوزَ، فليلزم العُبودية، وليُدْمِنِ الاستغاثةَ بالله ، وليبتهِلْ إلى مولاه في الثَّباتِ على الإسلام وأن يُتوفَّى على إيمانِ الصحابة ، وسادةِ التابعين ، والله الموفق ، فَبِحسْنِ قَصْدِ العَالِمِ يُغْفَرُ لَهُ وينجو إن شاءَ الله .

وقال أبو عمرو بن الصلاح : فصل لبيان أشياء مُهِمَّةٍ أُنْكِرَتْ على أبي حامد :

ففي تواليفه أشياءُ لم يرتضها أهلُ مذهبه من الشذوذ ، منها قوله في المنطق : هو مقدمة العُلُومِ كُلِّها ، ومن لا يُحيطُ به ، فلا ثقة له بمعلوم أصلاً[1] . قال : فهذا مردود ، إذْ كُلُّ صحيح الذهن منطقيٌّ بالطبع ، وكم من إمام ما رَفَعَ بالمنطِق رأساً .

فأما كتاب « المضنون به على غيرِ أهله » فمعاذَ اللهِ أن يكون له ، شاهدتُ على نسخة به بخطِّ القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشَّهْرُزُورِي أنه موضوع على الغزالي ، وأنه مختزع من كتاب « مقاصد الفلاسفة » ، وقد نقضه الرجلُ بكتاب « التهافت »[2] .

(١) قال ذلك في « المستصفى » : ١/ ١٠ ، وهذا المنطق الصوري اليوناني الذي امتدحه الغزالي بقوله : « من لا يحيط به فلا ثقة له بعلومه أصلاً » لا يحتاجُ إليه الذكيُّ ، ولا ينتفِعُ به البليدُ ، وكثيرٌ من قضاياه لا تَصِحُّ ، وقد كان سبباً في إفساد عقلية كثيرٍ من العلماء وانحرافهم عن منهج النبوة ، وطريقةِ السلفِ المشهود لهم بالخيرية على لسان من لا ينطِقُ عن الهوى . والتعليق هنا لا يتَّسِعُ لبيان ما في هذا العلم من خطأ وفساد ، ومن أراد معرفة ذلك بالتفصيل ، فليرجع إلى كتاب « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام ، فإنه قد أتى على بنيان هذا العلم من القواعد ، وهتكه هتكاً بالحجج الدامغة ، والبراهين الواضحة .

(٢) انظر لزاماً ما كتبه عن نسبة كتاب « المضنون به على غير أهله » للغزالي الدكتور سليمان دنيا في كتابه « الحقيقة عند الغزالي » .

وقال أحمدُ بنُ صالح الجيلي في « تاريخه » : أبو حامد لُقِّب بالغزّالي ، بَرَعَ في الفقه ، وكان له ذكاءٌ وفطنة وتصرُّف ، وقُدرة على إنشاء الكلام ، وتأليفِ المعاني ، ودخل في علومِ الأوائل .

إلى أن قال : وغلب عليه استعمالُ عباراتِهم في كُتبه ، واستُدْعِيَ لتدريس النِّظامية ببغداد في سنة أربع وثمانين ، وبقي إلى أن غلبت عليه الخلوةُ ، وتركَ التدريسَ ، ولبس الثيابَ الخشنةَ ، وتقلَّل في مطعومه .

إلى أن قال : وجاور بالقدس ، وشرع في « الإحياء » هناك ـ أعني بدمشق ـ وحجَّ وزار ، ورجع إلى بغداد ، وسُمِعَ منه كتابُه « الإحياء » ، وغيرُهُ ، فقد حدَّث بها إملاءً ، ثم سردَ تصانيفَه .

وقد رأيت كتابَ « الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء » للمازَري ، أوله : الحمدُ لله الذي أنار الحقَّ وأدالَه ، وأبارَ الباطِلَ وأزالَه ، ثم أورد المازَري أشياءَ مما نقدَه على أبي حامد ، يقول : ولقد أعْجَبُ مِنْ قوم مالكيةٍ يرون مالكاً الإمامَ يَهْرُبُ مِن التحديد ، ويُجانب أن يَرْسُمَ رسماً ، وإن كان فيه أثرٌ ما ، أو قياسٌ ما ، تورعاً وتحفظاً من الفتوى فيما يَحْمِلُ النَّاسَ عليه ، ثم يستحسنون مِن رجل فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له ، وفيه كثيرٌ من الآثار عن النبي ﷺ لفَّق فيه الثابتَ بغيرِ الثابت ، وكذا ما أورد عن السَّلَفِ لا يمكن ثبوتُه كُلُّه ، وأورد من نَزَغَاتِ الأولياء ونفثات الأصفياء ما يَجِلُّ موقِعُه ، لكن مزج فيه النافعَ بالضار ، كإطلاقات يحكيها عن بعضهم لا يجوزُ إطلاقُها لِشناعتها ، وإن أُخذت معانيها على ظواهرها ، كانت كالرموز إلى قدح الملحدين ، ولا تنصرِفُ معانيها إلى الحق إلا بتعسُّف على اللفظ مما لا يتكلف العلماءُ مثله إلا في كلام صاحِب الشرع الذي اضطرت المعجزاتُ الدالةُ على صدقه المانعة من جهله وكذبه إلى طلب التأويل ، كقوله : « إنَّ القَلْبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ

مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمن »(١) ، و« إن السَّماواتِ على إصبَع »(٢) ، وكقوله : « لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهه »(٣) ، وكقوله : « يَضْحَكُ اللهُ »(٤) ، إلى غير

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) في القدر : باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ، وأحمد : ١٦٨/٢ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث شاء » ثم قال رسول الله صلى ﷺ : « اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك » . وفي الباب عند الترمذي (٢١٤٠) في القدر ، وابن ماجة (٣٨٣٤) في الدعاء ، وأحمد ١١٢/٣ ، ٢٥٧ عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : « اللهم ثبت قلبي على دينك » فقال رجل : يا رسول الله تخاف علينا وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به ؟ فقال : « إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان عزَّ وجل يُقلِّبها » .

وهو عند ابن ماجة (١٩٩) في المقدمة ، وأحمد : ١٨٢/٤ عن النواس بن سمعان .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١١) في التفسير ، و (٧٤١٤) و (٧٤١٥) و (٧٤٥١) و (٧٥١٣) ومسلم (٢٧٨٦) في صفات المنافقين ، والترمذي (٣٢٣٩) في التفسير ، وأحمد ٤٥٧/١ عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزُّهُنَّ فيقول : أنا الملك ، أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قاله الحبر تصديقاً له . ثم قرأ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . وفي الباب عن عبد الله بن عباس عند الترمذي (٣٢٤٠) .

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩) في الإيمان ، وابن ماجة (١٩٥) و (١٩٦) في المقدمة ، وأحمد : ٤٠٠/٤ ـ ٤٠١ عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات ، فقال : « إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . ومعنى قوله : يخفض القسط : قبل : أراد به الميزان ، وقيل أراد بالقسط الرزق الذي هو قسط كل مخلوق ، يخفضه مرة فيقتره ، ويرفعه مرة فيبسطه ، ومعنى سبحات وجهه : أي نوره وجلاله وبهاؤه .

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٢٦) في الجهاد ، ومسلم (١٨٩٠) في الإمارة ، ومالك في « الموطأ » : ٤٦٠/٢ ، والنسائي : ٣٨/٦ و ٣٩ ، وابن ماجة (١٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » فقالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل ، فيستشهد ، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم ، فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد » .

ذلك من الأحاديث الوارد ظاهرُها بما أحاله العقلُ .

إلى أن قال : فإذا كانت العصمةُ غيرَ مقطوع بها في حق الوَلي ، فلا وجه لإضافة ما لا يجوزُ إطلاقُه إليه ، إلا أن يَثْبُتَ ، وتدعو ضرورةٌ إلى نقله ، فيتأول .

إلى أن قال : ألا ترى لو أن مُصنِّفاً أخذ يحكي عن بعض الحشوية مذهَبه في قِدَم الصَّوتِ والحرف ، وقِدَمِ الوَرَقِ ، لما حَسُنَ به أن يقول : قال بعضُ المحققين : إن القارىء إذا قرأ كتابَ الله ، عاد القارىءُ في نفسه قديماً بعد أن كان مُحْدَثاً ، أو قال بعضُ الحذاق : إن الله مَحَلٌ لِلحوادث ، إذا أخذ في حكاية مذهب الكَرَّامِيَّة .

وقال قاضي الجماعة أبو عبد الله محمدُ بن حَمْدين القرطبي : إن بعضَ من يَعِظُ ممن كان يَنْتَحِلُ رسمَ الفقه ، ثم تَبرَّأ منه شغفاً بالشِّرعة الغزَّالية ، والنِّحلة الصُّوفية ، أنشأ كُراسةً تشتمِلُ على معنى التعصُّب لِكتاب أبي حامد إمامِ بدعتهم ، فأين هو مِن شُنَعِ مناكيره ، ومَضاليلِ أساطِيره المُباينة للدين؟! وزعم أن هذا مِن علم المعاملة المُفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سِرِّ الربوبية الذي لا يُسفِر عن قِناعِهِ، ولا يَفُوزُ باطِّلاعه إلا من تَمطَّى إليه ثَبَج ضلالته التي رفع لهم أعلامَها ، وشرع أحكامَها . قال أبو حامد : وأدنى النصيبِ من هذا العلم التصديقُ به ، وأَقَلُّ عقوبته أن لا يُرْزَقَ المُنْكِرُ منه شيئاً ، فاعرض قوله على قـوله ، ولا يشتغِلُ بقراءة قـرآن ، ولا بكتْبِ حديثٍ ، لأن ذلك يَقْطَعُهُ عن الوصول إلى إدخال رأسه في كُمِّ جُبته ، والتدثر بكسائه ، فيسمع نداء الحقِّ ، فهو يقولُ : ذروا ما كانَ السَّلَفُ عليه ، وبادِرُوا ما آمرُكم به ، ثم إن هذا القاضيَ أقذَعَ ، وَسَبَّ ، وكفَّر ، وأسْرَفَ ، نعوذُ بالله من الهوى .

وقـال أبو حـامد : وصُـدُورُ الأحْرارِ قُبُورُ الأسرارِ ، ومن أفشى سِرَّ الربوبيـة ، كفر ، ورأى قَتْلَ مثلِ الحـلاج خيراً من إحيـاء عشرة لإطـلاقه ألفاظاً ، ونقل عن بعضهم قال : للربوبية سِرٌّ لو ظهر ، لبطلت النُّبوة ، وللنبوة سِرٌّ لو كُشِفَ ، لبطل العلمُ ، ولِلعِلم سرٌّ لو كشف ، لبطلت الأحكامُ .

قلت : سِرُّ العِلمِ قد كشف لصوفة أشقياء ، فحلُّوا النِّظام ، وبـطل لديهم الحلالُ والحرامُ .

قال ابن حمدين : ثم قال الغزالي : والقائلُ بهٰذا ، إن لم يُرِدْ إبطالَ النبوة في حقِّ الضعفاء ، فما قال ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقضُ ، وإن الكاملَ مَنْ لا يُطفىء نُورُ معرفته نُورَ ورعه .

وقـال الغـزَّالي في العـارف : فتتجلى لـه أنـوارُ الحقِّ، وتنكشِفُ لـه العلومُ المرموزةُ المحجوبةُ عن الخلق ، فيعـرِفُ معنى النبوة ، وجميـعَ ما وردت به ألفاظُ الشريعة التي نحن منها على ظاهِرٍ لا على حقيقة .

وقال عن بعضهم : إذا رأيتَه في البداية ، قلتَ : صديقاً ، وإذا رأيتَه في النهاية ، قلت : زنديقاً ، ثم فسَّره الغزَّالي ، فقال : إذِ اسمُ الزنديق لا يُلصق إلا بمعطِّل الفرائضِ لا بمعطِّلِ النوافل . وقال : وذهبت الصوفيةُ إلى العلومِ الإلهامية دونَ التعليمية ، فيجلس فَارِغَ القلب ، مجموعَ الهَمِّ يقول : اللهُ اللهُ[1] ، على الـدوام ، فليُفرِّغ قلبَـه ، ولا يشتغل بتـلاوة ولا كتبِ حديث . قال : فإذا بلغَ هذا الحد ، التزم الخلوةَ في بيت مظلمٍ ، وتدثَّر

(١) الذكر بالاسم المفرد لم يرد في السنة ، لأن الذكر ثناء على الله ، والثناء لا يكـون إلا بجملة تـامة ، وهـديُ رسول الله ﷺ واجبُ الاتبـاع في هذا وأمثالِـه ، وقـد ثبت عنـه ﷺ قوله : « أفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .
انظر « الموطأ » : ١/٤٢٢ ـ ٤٢٣ ، والترمذي (٣٥٧٩) .

بكسائه ، فحينئذٍ يسمعُ نداءَ الحق : ﴿ يا أيُّها المُدَّثِّرُ ﴾ و﴿ يا أيُّها المُزَّمِّلُ ﴾ .

قلتُ : سَيِّدُ الخلقِ إنما سَمِعَ ﴿ يا أيُّها المُدَّثِّرُ ﴾ مِن جبريل عن الله ، وهذا الأحمقُ لم يَسْمَعْ نداءَ الحقِّ أبداً ، بل سَمِعَ شيطاناً ، أو سَمِعَ شيئاً لا حقيقةَ مِن طيش دماغه ، والتوفيقُ في الاعتصام بالسنة والإجماع .

قال أبو بكر الطُّرْطُوشي : شَحَنَ أبو حامد « الإحياء » بالكذب على رسولِ الله ﷺ ، فلا أعلَمُ كتاباً على بسيط الأرضِ أكثَرَ كذباً منه ، ثم شبَّكه بمذاهب الفلاسفة ، ومعاني رسائل إخوانِ الصفا ، وهُمْ قوم يرون النبوة مكتَسَبة ، وزعموا أن المعجزاتِ حِيَلٌ ومخاريق .

قال ابنُ عساكر[1] : حجّ أبو حامد وأقام بالشام نحواً من عشر سنين ، وصنَّف ، وأخذ نفسَه بالمجاهدة ، وكان مُقَامُه بدمشق في المنارةِ الغربية مِن الجامع ، سَمِعَ « صحيح البخاري » من أبي سهل الحفصي ، وقَدِمَ دمشق في سنة تسع وثمانين .

وقال ابنُ خَلِّكَانَ : بَعَثَهُ النِّظَامُ على مدرسته ببغداد في سنة أربعٍ وثمانين ، وتركها في سنةِ ثمان وثمانينَ ، وتزهَّدَ ، وحجَّ ، وأقام بدمشق مُدَّةً بالزاوية الغربية ، ثم انتقلَ إلى بيت المقدس وتعبَّدَ ، ثم قصد مِصْر ، وأقام مدَّةً بالإسكندرية ، فقيل : عزم على المضي إلى يوسف بن تاشفين سلطانِ مراكش ، فبلغه نَعِيُّه ، ثم عاد إلى طُوس ، وصنَّف « البَسيطَ » و« الوسيطَ » و« الوجيزَ » و « الخلاصة » و « الإحياء » ، وألَّف « المستصفى » في أصول الفقه ، و « المنخول » و « اللباب » و « المنتحل في الجدل » و « تهافت الفلاسفة »

(١) أورده السبكي في « طبقاته » : ١٩٧/٦ وقال : كذا نقل شيخنا الذهبي ، ولم أجد ذلك في كلام ابن عساكر لا في « تاريخ الشام » ولا في « التبيين » .

و « محكّ النظر » و « معيار العلم » و « شرح الأسماء الحسنى » و « مشكاة الأنوار » و « المنقذ من الضلال » و « حقيقة القولين » وأشياء .

قال ابنُ النجار : أبو حامد إمامُ الفقهاءِ على الإطلاق ، وربَّانيُّ الأُمَّةِ بالاتفاق ، ومجتهدُ زمانه ، وعينُ أوانه ، برع في المذهب والأصول والخلاف والجدلِ والمنطق ، وقرأ الحِكمة والفلسفة ، وَفَهِمَ كلامهم ، وتصدَّى للردِّ عليهم ، وكان شديدَ الذكاء ، قويَّ الإدراك ، ذا فِطنة ثاقبة ، وغوص على المعاني ، حتى قيل : إنه ألف « المنخول » ، فرآه أبو المعالي ، فقال : دفنتني وأنا حيٌّ ، فهلَّا صبرتَ الآن ، كتابُك غطَّى على كتابي[1] .

ثم روى ابنُ النجار بسنده أن والد أبي حامد كان يَغْزِلُ الصوفَ ويبيعُهُ في دُكانه بطُوس ، فأوصى بولديه محمد وأحمد إلى صديقٍ له صوفي صالح ، فعلمهما الخطَّ ، وفَنِيَ ما خلَّف لهما أبوهما ، وتعذَّر عليهما القوتُ ، فقال : أرى لكما أن تلجآ إلى المدرسة كأنكما طالبان للفقه عسى يحصُل لكما قوتٌ ، ففعلا ذلك .

قال أبو العباس أحمد الخطيبي : كنت في حلقة الغزَّالي ، فقال : مات أبي ، وخلَّف لي ولأخي مقداراً يسيراً ففني بحيث تعذَّرَ علينا القوتُ ، فصِرنا إلى مدرسة نطلُبُ الفقه ، ليس المرادُ سوى تحصيلِ القوت ، فكان تعلُّمنا لذلك ، لا لله ، فأبى أن يكون إلا لله .

قال أسعد الميهني : سمعتُ أبا حامد يقول : هاجرتُ إلى أبي نصر الإسماعيلي بجُرجان ، فأقمتُ إلى أن أخذت عنه التعليقة[2] .

(١) في « المنتظم » : ١٦٩/٩ : هلا صبرت حتى أموت ، وأراد أن كتابك قد غطى على كتابي .

(٢) انظر خبر هذه التعليقة في « طبقات الشافعية » : ١٩٥/٦ فإنه طريف .

قال عبد الله بن علي الأشبيري[1] : سمعت عبد المؤمن بن علي القيسي ، سمعتُ أبا عبد الله بن تُومَرْت[2] يقول : أبو حامد الغزالي فَرَعَ البابَ وفُتِحَ لَنَا .

قال ابن النجار : بلغني أن إمامَ الحرمين قال : الغزالي بحر مُغْرِقٌ ، وإلْكِيا أَسَدٌ مُطْرِقٌ[3] ، والخَوافي[4] نارٌ تُحْرِقُ .

قال أبو محمد العثماني وغيره : سمعنا محمدَ بنَ يحيى العَبْدَرِي المؤدِّب يقول : رأيتُ بالإسكندرية سنةَ خمس مئة كأنَّ الشمسَ طَلَعَتْ مِن مغربها ، فَعَبَرَهُ لي عابرٌ ببدعة تَحْدُثُ فيهم ، فبعد أيام وصل الخبر بإحراق كتب الغزالي من المَرِيَّة .

---

(١) ضبطه ابن الأثير في « اللباب » بفتح الهمزة ، وكسر الشين ، وسكون الياء ، وقال : هذه النسبة إلى أشير ، حصن بالمغرب ينسب إليه عبد الله بن محمد بن عبد الله أبو محمد الصنهاجي المغربي المعروف بابن الأشيري ، سمع بالأندلس أبا جعفر بن غزلون ، وأبا بكر محمد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي وغيرهما ، وقدم الشام بأهله ، وكان أديباً فاضلاً توفي بالشام في سنة إحدى وستين وخمس مئة ، ودفن في بعلبك وسترد ترجمته عند المصنف في الجزء العشرين رقم (٢٩٤) .

(٢) عبد المؤمن : هو ملك المغرب ، المتوفى سنة ٥٥٨ هـ ، سترد ترجمته في الجزء العشرين برقم (٢٥٤) . وابن تومرت : هو محمد بن عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي المصمودي صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٢٤ ، وسترد ترجمته في هذا الجزء برقم (٣١٨) .

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري المعروف بإلكيا الهراسي الفقيه الشافعي ستأتي ترجمته برقم (٢٠٧) .

(٤) نسبة إلى خواف ، ناحية من نواحي نيسابور كثيرة القرى ، والخوافي هذا : هو أبو المظفر أحمد بن محمد بن المظفر الخوافي الفقيه الشافعي ، كان أنظر أهل زمانه ، تفقه على إمام الحرمين الجويني ، وصار أوجه تلامذته ، وكان مشهوراً بين العلماء بحسن المناظرة ، وإفحام الخصوم .

والنص في طبقات السبكي : ٦/ ٢٠٢ كان الجويني يقول في تلامذته : اذا ناظروا : التحقيق للخوافي ، والحدسيات للغزالي ، والبيان للكيا .

وفي التوكل مِن « الإحياء »[1] ما نصه : وكُلُّ ما قسمَ اللهُ بين عباده مِن رزقٍ وأجلٍ ، وإيمانٍ وكُفر ، فَكُلُّه عدلٌ محض ، ليس في الإمكانِ أصلاً أحسنُ ولا أتمُّ منه ، ولو كان وادَّخره تعالى مع القدرة ولم يفعلْه ، لكان بُخلاً وظلماً .

قال أبو بكر بن العربي في « شرح الأسماء الحسنى » : قال شيخنا أبو حامد قولاً عظيماً انتقده عليه العلماءُ ، فقال : وليس في قُدرة الله أبدعُ مِن هذا العالم في الإتقان والحكمة ، ولو كان في القدرة أبدعُ أو أحكمُ منه ولم يفعله ، لكان ذلك منه قضاءً للجُود ، وذلك محال . ثم قال : والجواب أنه باعد في اعتقاد عمومِ القدرة ونفي النهاية عن تقدير المقدورات المتعلقة بها ، ولكن في تفاصيل هذا العالم المخلوق ، لا في سواه ، وهذا رأيٌ فلسفي قصَدتْ به الفلاسفةُ قلبَ الحقائق ، ونسبت الإتقانَ إلى الحياة مثلاً ، والوجودَ إلى السمع والبصر ، حتى لا يبقى في القلوبِ سبيلٌ إلى الصواب ، وأجمعت الأمةُ على خلاف هذا الاعتقاد ، وقالت عن بكرة أبيها : إن المقدوراتِ لا نهايةَ لها لِكل مقدر الوجود ، لا لكل حاصل الوجود ، إذ القدرةُ صالحة ، ثم قال : وهذه وَهْلَةٌ لا لَعاً لها[2] ، ومَزَلَّةٌ لا تماسكَ فيها ، ونحن وإن كنا نقطةٌ من بحره ، فإنا لا نَرُدُّ عليه إلا بقوله .

قلتُ : كذا فليكن الردُّ بأدبٍ وسكينة .

ومما أُخِذَ عليه قال : إن للقدر سِراً نُهينا عن إفشائه ، فأيُّ سرٍّ للقدر ؟

---

(١) ٤/ ٢٥٨ : في آخر باب بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل .

(٢) قال ابو عبيدة : من دعائهم : لاعاً لفلان ، أي : لا أقامه الله ، والعرب تدعو على العاثر من الدواب إذا كان جواداً بالتعس ، فتقول : تعساً له ، وإن كان بليداً ، كان دعاؤهم له إذا عثر : لعاً لك .

فإن كان مُدْرَكاً بالنظر، وُصِلَ إليه ولا بُدَّ، وإن كان مُدْرَكاً بالخبر، فما ثبت فيه شيء ، وإن كان يُدْرَكُ بالحال والعِرفان ، فهذه دعوى مَحضة ، فلعله عَنَى بإفشائه أن نُعَمِّق في القدر ، ونبحثَ فيه .

أخبرنا محمد بن عبد الكريم[1]، أخبرنا أبو الحسن السخاوي، أخبرنا حطلبا بن قمرية الصوفي ، أخبرنا سعدُ بن أحمد الإسفراييني بقراءتي ، أخبرنا أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطُّوسي قال : اعلم أنَّ الدينَ شطرانِ : أحدُهُما تركُ المناهي ، والآخرُ فعل الطاعات ، وتركُ المناهي هو الأشدُّ ، والطاعات يَقْدِرُ عليها كُلُّ أحد ، وتركُ الشهوات لا يقدِرُ عليها إلا الصِّديقون ، ولذلك قال ﷺ : « المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ ، والمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ »[2] .

---

(١) ترجمه المؤلف في مشيخته الورقة : ١٤٠ ، فقال : هو محمد بن عبد الكريم بن علي بن أحمد المقرىء المعمر ، نظام الدين أبو عبد الله التبريزي ، ثم الدمشقي الشافعي ، ولد في حدود سنة عشر وست مئة في دولة العادل ، وكان يسافر مع ابنه للتجارة ، فذكر لي أنه قرأ لأبي عمر ختمة على أبي القاسم الصفراوي ، وأراني إجازته من السخاوي بالسبع في سنة خمس وثلاثين وست مئة ، وقرأ بأربع روايات على المنتجب الهمذاني ، وسمع بحلب من أبي القاسم بن رواحة وجماعة ، وكان له حلقة مصدرة ، ومسجد بناحية البارستان ، وكان خيراً متواضعاً . عرضت عليه ختمة لعلو سنده ، وطال بعد ذلك عمره ، واستولى عليه الهرم والمرض ، وبقي بالمارستان النوري قريب السنة وافتقر . مات في ربيع الآخر سنة أربع وسبع مئة .

(٢) صحيح ، وأخرجه الإمام أحمد : ٦/ ٢١ من طريق الليث بن سعد عن أبي هانىء الخولاني عن عمرو بن مالك الجنبي ـ وقد تحرف فيه إلى الجبني ـ عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « ألا أخبركم بالمؤمن ، من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » . وصححه ابن حبان (٢٥) ، والحاكم : ١/ ١٠ ، ١١ ، ووافقه الذهبي ، وله شاهد من حديث أنس عند ابن حبان (٢٦) ، والحاكم : ١/ ١١ .

وقال أبو عامر العبدري : سمعت أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد القادر الطوسي يَحْلِفُ بالله أنه أبصر في نومه كأنَّه ينظر في كتب الغزالي رحمه الله ، فإذا هي كُلُّها تصاوير .

قلت : الغزالي إمامٌ كبير ، وما مِن شرط العالم أنه لا يُخطىء .

وقال محمد بن الوليد الطُّرطُوشي في رسالة له إلى ابن مظفر: فأما ما ذكرت من أبي حامد ، فقد رأيتُهُ ، وكلمتُهُ ، فرأيتُهُ جليلاً من أهل العلم ، واجتمع فيه العقلُ والفهمُ ، ومارسَ العلومَ طُولَ عمره ، وكان على ذلك معظَّمَ زمانه ، ثم بدا له عن طريق العلماء ، ودخل في غُمار العُمَّال ، ثم تصوَّف ، وهجر العلومَ وأهلها ، ودخل في علوم الخواطِرِ ، وأربابِ القلوب ، ووساوسِ الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفةِ ، ورُموز الحلاج ، وجعل يَطْعُنُ على الفقهاء والمتكلمين ، ولقد كاد أن ينسلِخَ من الدين ، فلما عمل «الإحياء»، عَمَدَ يتكلَّم في علوم الأحوال، ومرامزِ الصُّوفية، وكان غَيرَ أنيسٍ بها ، ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أُمِّ رأسه ، وشحن كتابَه بالموضوعات .

قلتُ : أما « الإحياء » ففيه من الأحاديث الباطلة جملة[1] ، وفيه خير

---

(١) وقد جمع الإمام السبكي في طبقاته : ٦/ ٢٨٧ ـ ٣٨٨ الأحاديث الواقعة في كتاب الإحياء التي لم يجد لها إسناداً ، وعدتها ٩٤٣ حديثاً تقريباً .

وقد خرج أحاديث الإحياء كلها الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ في كتاب سماه « المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار » وهو مطبوع مع الإحياء ، وقد عزا كل حديث إلى مصدره ، وأبان عن درجة كل واحد منها ، وكثير منها حكم عليه بالضعف أو الوضع ، أو أنه لا أصل له من كلام رسول الله ﷺ ، فليحذر الكتاب والخطباء والمدرسون والوعاظ من تناول ما في الإحياء من الأحاديث ، والاستشهاد بها ما لم يتبينوا صحتها من تخريجات الحافظ العراقي ، فقد قال محدث الديار الشامية الشيخ بدر الدين الحسني : لا يجوز إسناد حديث لرسول الله ﷺ إلا إذا نص على =

كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزُهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية ، نسأل الله علماً نافعاً ، تدري ما العلمُ النافع ؟ هو ما نزل به القرآنُ ، وفسَّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً ، ولم يأتِ نهي عنه ، قال عليه السلام : « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي ، فَلَيْسَ مِنِّي »[1] ، فعليك يا أخي بتدبُّر كتاب الله ، وبإدمان النظر في « الصحيحين » ، وسنن النسائي ، ورياض النواوي وأذكاره، تُفْلِحْ وتُنْجِحْ، وإياك وآراءَ عُبَّادِ الفلاسفة، ووظائِفَ أهل الرياضات ، وجُوعَ الرهبان ، وخطابَ طَيْشِ رؤوسِ أصحاب الخلوات ، فَكُلُّ الخير في متابعة الحنيفية السمحة ، فواغوثاه بالله ، اللهم اهدِنَا إلى صراطك المستقيم .

نعم ، وللإمامِ محمد بن علي المازَري الصَّقَلِّي كلامٌ على « الإحياء » يَدُلُّ على إمامته ، يقول : وقد تكرَّرت مكاتبتكُم في استعلام مذهبنا في الكتاب المترجم بـ « إحياء علوم الدين » ، وذكرتُم أن آراء الناس فيه قد اختلفت ، فطائفةٌ انتصرت وتعصَّبت لإشهاره ، وطائفة حذَّرت منه ونفَّرت ، وطائفة لكُتُبِه أحرقت ، وكاتبني أهلُ المشرق أيضاً يسألوني ، ولم يتقدم لي

= صحة هذا الحديث حافظ من الحفاظ المعروفين ، فمن قال : قال رسول الله ﷺ وهو لا يعلم صحة ذلك من طريق أحد الحفاظ يوشك أن يصدق عليه حديث « من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » . انظر مجلة الهداية الإسلامية : ٨/٢٦٤ .

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٥٠٦٣) في النكاح ، ومسلم (١٤٠١) ، والنسائي : ٦/٦٠ ، وأحمد : ٣/٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ ، من طريقين عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺيسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟!، قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج النساء أبداً . فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

قراءةُ هذا الكتاب سوى نُبَذٍ منه ، فإن نفَس اللهُ في العُمُرِ ، مددتُ فيه الأنفاس ، وأزلتُ عن القلوب الالتباس : اعلموا أن هذا رأيتُ تلامذته ، فَكُلٌّ منهم حكى لي نوعاً مِن حاله ما قام مقام العِيَانِ ، فأنا أقتصِرُ على ذكر حاله ، وحالِ كتابه ، وذِكْرِ جُمَلٍ مِن مذاهب الموحِّدين والمتصوِّفة ، وأصحابِ الإشارات ، والفلاسفة ، فإن كتابه متردِّدٌ بين هذه الطرائق .

ثم إن المازري أثنى على أبي حامد في الفقه ، وقال : هو بالفقه أعرفُ منه بأصوله ، وأما عِلْمُ الكلام الذي هو أصولُ الدين ، فإنه صنَّف فيه ، وليس بالمتبحر فيها ، ولقد فَطِنْتُ لعدم استبحاره فيها ، وذلك أنه قرأ علومَ الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول ، فأكسبته الفلسفة جُرأةً على المعاني ، وتسهُّلاً للهجوم على الحقائق ، لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها ، لا يَزَعُها شَرْعٌ ، وعرَّفني صاحب له أنه كان له عُكوفٌ على رسائِل إخوان الصفا ، وهي إحدى وخمسون رسالةً ، ألَّفها من قد خاض في علم الشرع والنقل ، وفي الحكمة ، فمزج بينَ العلمين ، وقد كان رجل يُعْرَفُ بابن سينا ملأ الدنيا تصانيفَ ، أدَّته قُوَّتُهُ في الفلسفة إلى أن حاول ردَّ أُصولِ العقائد إلى علم الفلسفة ، وتلطَّفَ جُهْدَه ، حتى تمَّ له ما لم يتم لغيره ، وقد رأيتُ جُمَلاً من دواوينه ، ووجدتُ أبا حامد يُعَوِّلُ عليه في أكثر ما يُشيرُ إليه من علوم الفلسفة .

وأما مذاهبُ الصُّوفية ، فلا أدري على مَنْ عوَّل فيها ، لكني رأيتُ فيما عَلَّق بعضُ أصحابه أنه ذكر كُتُبَ ابنِ سينا وما فيها ، وذكر بعد ذلك كتبَ أبي حيان التوحيدي ، وعندي أنه عليه عوَّل في مذهب التصوف ، وأُخبِرْتُ أن أبا حيان ألَّف ديواناً عظيماً في هذا الفن ، وفي « الإحياء » من الواهيات كثير . قال : وعادةُ المتورِّعين أن لا يقولوا : قال مالك ، وقال الشافعي ، فيما لم يثبت عندهم .

ثم قال : ويستحسنُ أشياءَ مبناها على ما لا حقيقة له ، كقصِّ الأظفارِ أن يبدأ بالسَّبابة ، لأن لها الفضلَ على باقي الأصابع ، لأنها المسبِّحة ، ثم قص ما يليها من الوسطى ، لأنها ناحية اليمين ، ويختِم بإبهام اليـمنىٰ ، وروى في ذلك أثراً .

قلت : هو أثر موضوع .

ثم قال : وقال : من ماتَ بعد بلوغه ولم يعلم أن الباريء قديم ، مات مسلماً إجماعاً . قال : فمن تساهل في حكاية الإجماع في مثل هذا الذي الأقربُ أن يكون الإجماعُ في خلافه ، فحقيق أن لا يُوثق بما رَوى ، ورأيتُ له في الجزء الأول يقول : إن في علومِه ما لا يسوغ أن يُودَعَ في كتاب ، فليت شعري أحقٌّ هو أو باطل ؟! فإن كان باطلاً ، فَصَدَقَ ، وإن كان حقاً ، وهو مرادُه بلا شك ، فلم لا يُودَعُ في الكتب ، أَلِغُموضه ودِقته ؟ ! فإن كان هو فَهِمَه ، فما المانع أن يفهمَه غيرُه ؟ !

قال أبو الفرج ابن الجوزي : صنف أبـو حامـد « الإحياء » ، ومـلأه بالأحاديثِ الباطلة ، ولم يعلم بطلانها ، وتكلم على الكشف ، وخرج عن قانونِ الفقـه ، وقال : إن المـرادَ بالكـوكب والقمر والشمس اللواتي رآهن إبراهيم ، أنوار هي حُجُبُ الله عز وجل ، ولم يُرد هذه المعروفات ، وهذا من جنس كـلامِ الباطنية ، وقد ردَّ ابنُ الجـوزي على أبي حـامـد في كتـاب « الإحياء » ، وبين خطأه في مجلدات ، سماه كتاب « الأحياء » .

ولأبي الحسن ابن سُكَّر رَدٌّ على الغزالي في مجلد سماه : « إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء » .

قلت : ما زال الأئمة يُخالف بعضُهم بعضاً ، ويردُّ هذا على هـذا ،

ولسنا ممن يَذُمُّ العالم بالهوى والجهل .

نعم ، ولـلإمامِ كتـاب « كيمياء السعـادة » ، وكتاب « المعتقـد » ، وكتاب « إلجام العوام » ، وكتاب « الرد على الباطنيـة » ، وكتاب « معتقـد الأوائل » ، وكتاب « جواهر القرآن » ، وكتاب « الغاية القصوى » ، وكتاب « فضائح الإباحية » و « مسألة عوز الدور » ، وغير ذلك .

قال عبد الغافر الفارسي : توفي يوم الاثنين رابع عشر جُمادى الآخرة سنةَ خمس وخمس مئة ، وله خمس وخمسون سنة ، ودُفِنَ بمقبرة الطابرَان قصبة بلادِ طوس ، وقولهم : الغزَّالي ، والعطّاري ، والخبّازي ، نسبة إلى الصنائع بلسان العجم ، بجمع ياء النسبة والصيغة .

وللغزّالي أخ واعظٌ مشهور ، وهو أبو الفتوح أحمد ، له قبولٌ عظيم في الوعظ ، يُزَنُّ[1] برقة الدين وبالإبـاحة ، بقي إلى حـدود العشرين وخمس مئة ، وقد ناب عن أخيه في تدريس النظامية ببغداد لما حج مُديدة .

قرأت بخط النواوي رحمه الله : قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح : وقد سئل : لم سُمِّي الغزالي بذلك ، فقال : حدثني من أَثِقُ به ، عن أبي الحرم الماكسي الأديب ، حدثنا أبو الثناء محمود الفرضي ، قال : حدثنا تاجُ الإسلام ابن خميس ، قال لي الغزَّالي : الناس يقولون لي الغزَّالي ، ولست الغزَّالي ، وإنما أنا الغَزَالي منسوب إلى قرية يقال لها : غزالة ، أو كما قال .

---

(١) أي : يتهم ويرمى ، يقال : زنه بكذا ، وأزنّه : إذا اتهمه وظنه فيه ، وفي خبر الأنصار وتسويدهم جد بن قيس : إنا لَنَزُنُّه بالبخل ، أي : نتهمه به ، وفي شعر حسان بن ثابت في عائشة رضي الله عنها :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبةٍ … وتُصبحُ غرثى من لحوم الغوافِلِ .

وفي أواخر « المنخول »[1] للغزالي كلام فجٌّ في إمام لا أرى نقلَه هنا .

ومن عقيدة أبي حامد رحمه الله تعالى أوَّلها : الحمدُ لله الذي تعرَّف إلى عباده بكتابه المنزل على لسان نبيِّه المرسل ، بأنه في ذاته واحد لا شريكَ له ، فردٌ لا مِثل له ، صَمَدٌ لا ضِدَّ له ، لم يَزَلْ ولا يزالُ منعوتاً بنعوت الجلال ، ولا تُحيطُ به الجهاتُ ، ولا تكنُفه السَّماواتُ ، وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، منزَّهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحُلول والانتقال ، وهو فوقَ كُلِّ شيء إلى التخوم ، وهو أقربُ إلينا من حبل الوريد ، لا يُماثِلُ قُرْبُه قربَ الأجسام ، كان قبلَ خلقِ المكان والزمان ، وهو الآن على ما كان عليه ، وأنه بائنٌ بصفاته من خلقه ، ما في ذاته سِواه ، ولا في سِواه ذاتُه ، مُقدَّس عن التغيُّر والانتقال ، لا تَحُلُّه الحوادِثُ ، وأنه مرئي الذاتِ بالأبصار في دارِ القرار ، إتماماً للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم .

إلى أن قال : ويُدْرِكُ حركة الذَّرِّ في الهواء ، لا يخرج عن مشيئته لفتةُ ناظر ، ولا فلتةُ خاطر ، وأنَّ القرآن مقروء بالألسِنة ، محفوظٌ في القلوب ، مكتوبٌ في المصاحف ، وأنه مع ذلك قائمٌ بذات الله ، لا يقبلُ الانفصال

---

(١) ص : ٤٩٥ ـ ٥٠٤ ، والمراد بالإمام : أبو حنيفة رحمه الله ، وحقّ للذهبي أن ينعت كلامه فيه بأنه فج ، فإنه ليس عليه أثارة من علم ، وقد صدر عنه حين كان متلبساً بعلوم الجدل ، وحظوظ طلبة العلم ، فإنه صنف المنخول في أول حياته العلمية ، ومعظم ما في هذا الفصل من فِقَرٍ مأخوذة من كتاب شيخه إمام الحرمين « مغيث الخلق في ترجيح القول الأحق » الذي ألفه في ترجيح مذهب الشافعي على غيره من المذاهب ، وفيه من التعصب الفظيع ، والحطِّ الشنيع على الإمام أبي حنيفة رحمه الله ما تصم عنه الأسماع ، وتنبو عنه الأذواق ، وهو مما لا يلتفت إليه عند المحققين من العلماء ذوي النصفة ، وقد صنف الإمام الكوثري في الرد عليه كتاب « إحقاق الحق » فليرجع إليه من شاء .

بالانتقال إلى القلوب والصحف ، وأنَّ موسى سَمِعَ كلامَ الله بغيرِ صوت ولا حرف[1] ، كما تُرى ذاتُه مِن غير شكل ولا لون ، وأنه يفرق بالموت بين الأرواح والأجسام ، ثم يُعيدُها إليها عند الحشر ، فيبعثُ مَن في القبور .

ميزان الأعمال مِعْيار يُعبَّر عنه بالميزان ، وإن كان لا يُساوي ميزانُ الأعمال ميزانَ الجسم الثقيل ، كميزان الشمس ، وكالمسطرة التي هي ميزان السطور، وكالعَروضِ ميزان الشعر .

قلت : بل ميزانُ الأعمال له كِفَّتان ، كما جاء في « الصحيح »[2] وهذا المعتقد غالبُه صحيح ، وفيه ما لم أفهمه ، وبعضُه فيه نزاعٌ بينَ أهلِ

---

(١) في كتاب الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة رحمه الله : والقرآن في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق ، وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه السلام وغيره ، وعن فرعون وإبليس ، فإن ذلك كلام الله إخباراً عنهم ، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق ، والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل ، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا ، ويتكلم لا ككلامنا .

وقال العلامة الآلوسي في تفسيره « روح المعاني » ١٧/١ : الذي انتهى إليه كلام أئمة الدين كالماتريدي والأشعري وغيرهما من المحققين أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت كما تدل عليه النصوص التي بلغت في الكثرة مبلغاً لا ينبغي معه تأويل ، ولا يناسب في مقابلته قال وقيل ، فقد قال تعالى : ﴿ ونادياه من جانب الطور الأيمن ﴾ ، ﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ ، ﴿ نودي من شاطىء الوادِ الأيمن ﴾ ، ﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ واللائق بمقتضى اللغة والأحاديث أن يفسر النداء بالصوت ، بل قد ورد إثبات الصوت لله تعالى شأنه في أحاديث لا تحصى وأخبار لا تستقصى .

(٢) لفظ الميزان ورد في القرآن والأحاديث الصحيحة ، وأما الكفتان ، فلم ترد في الصحيح كما ذكر المصنف ، وإنما هي في المسند ٢١٣/٢ ، والترمذي (٢٦٤١) ، وابن ماجة (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان (٢٥٣٤) ، والحاكم : ٥٢٩/١ ، ووافقه الذهبي . وانظر « النهاية » لابن كثير : ٢٤/٢ ، وشرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٠٩ ـ ٤١٣ لابن أبي العز بتحقيقنا .

المذاهب ، ويكفي المسلمَ في الإيمان أن يُؤمِنَ بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدرِ خيرِه وشرِّه ، والبعثِ بعدَ الموت ، وأن الله ليسَ كمثله شيء أصلاً ، وأنَّ ما ورد مِن صفاته المقدَّسة حق ، يُمرُّ كما جاء ، وأن القرآن كلامُ الله وتنزيله، وأنه غيرُ مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمةُ، ولا عِبرة بمن شذَّ منهم ، فإن اختلفتِ الأُمَّةُ في شيء من مُشْكِل أصولِ دينهم ، لزمنا فيه الصمت ، وفوَّضناه إلى الله ، وقلنا : اللهُ ورسولُه أعلم ، وَوَسِعَنَا فيه السُّكوتُ . فرحم اللهُ الإمامَ أبا حامد ، فأين مثلُه في علومه وفضائله ، ولكن لا ندَّعي عصمتَه من الغلطِ والخطأ ، ولا تقليدَ في الأصول .

٢٠٥ ـ خَميسُ بنُ عَلي *

ابن أحمد بن علي بن الحسن ، الإمامُ الحافظُ ، محدثُ واسط ، أبو الكرم الحَوْزِي الواسطي .

سمع أبا القاسم بن البُسري ، وأبا نصرٍ الزينبي ، وعاصمَ بن الحسن ، وعليَّ بن محمد الواسطي النديم ، ويحيى بنَ هِبة الله البزاز ، وأبا الفتح عبد الوهَّاب بنَ حسن القاضي ، وهِبَةَ الله بن الجَلَخْت ، وخلقاً كثيراً ، وأملى مجالِسَ ، وجرَّح وعدَّل .

حدَّث عنه : أبو الجوائز سعدُ بنُ عبد الكريم ، وأبو طاهر السِّلَفيُّ ،

(*) الأنساب : ٤/٢٦٩ ، معجم السفر للسلفي : ١/٤٣ ، خريدة القصر : ٤/٤٦٩ ـ ٤٧٣ ، معجم البلدان : ٢/٣١٩ ، معجم الأدباء : ١١/٨١ ـ ٨٣ ، الاستدراك : ١٣٧ ب ـ ١٣٨ أ ، إنباه الرواة : ١/٣٥٨ ـ ٣٥٩ ، تاريخ الإسلام : خ ٤/١/١٩٦ ، العبر : ٤/٢٠ ، المشتبه : ١٢٨ ، تذكرة الحفاظ : ٤/١٢٦٢ ـ ١٢٦٣ ، الوافي بالوفيات : ٨ ل/٣٦ ، عيون التواريخ : ١٣/لوحة ٣٣٠ ، تبصير المنتبه : ١/٣٧٣ ، بغية الوعاة : ١/٥٦١ ، طبقات الحفاظ : ٤٥٨ ، المنهج الأحمد للعليمي م ٢ ج ١/٣٢٢ ، شذرات الذهب : ٤/٢٧ .